(C) www.nidaulhind.com

العلامة سيد سليمان الندوي

لم يكن العلامة سيد سليمان الندوي من كبار المؤلفين في "السيرة النبوية" لعصره فحسب ، بل كان من أبرز المؤلفين في السيرة والتاريخ الإسلامي بكامله، وقد كان من مزاياه أنه وسّع نطاق السيرة من سرد الأحداث وبيان الشمائل و وصف العادات ، إلى الرسالة المحمدية والتعليمات النبوية والشريعة الإسلامية، وبحث شعبها المختلفة ، وبهذا المنهج المنفرد الموسّع الذي سلكه أستاذه العلامة "شبلي النعماني" في المجلدين الأولين للسيرة النبوية ، وسلكه العلامة سيد سليمان الندوي في المجلدات الخمسة الباقية ، أصبح الكتاب موسوعة للسيرة لا يوجد لها نظير في أي لغة من لغات المسلمين في العالم .

[لقد كتب هذا المقال سماحة العلامة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ، إسهاما منه في ندوة علمية عقدتها جامعة الرشاد بمدينة أعظم كره (الهند) حول شخصية وحياة العلامة سيد سليمان الندوي -رحمه الله-، وقد ألقى المقال سماحته في إحدى جلسات الندوة، ننشره تعميما للنفع ، وإفادة للقراء الكرام] التحرير

وكان من منجزاته أيضًا أنه حقق بالسيرة والتاريخ أهدافًا لا تتحقق إلا بعلم الكلام ، فأسس علم كلام جديد يفوق علم الكلام القديم في التأثير على الذهن الجديد وإقناعه ، وفي توثيق الثقة بالشخصية النبوية والشريعة الإسلامية ، وهو أكثر سدادًا للحياة العملية المعاصرة .

أما كتابه "خطبات مدراس" ، الذي نقل إلى العربية باسم "الرسالة المحمدية" (١) ، وصدرت عدة طبعات له من مصر وسورية ، فهو من أقوى الكتب في السيرة وأروعها في جمال التعبير ، وبثّ حلاوة الإيمان ، وتوثيق

(C) www.nidaulhind.com

الصلة بذات النبي ﷺ ، والكتاب عصارة لمكتبة كاملة في السيرة النبوية ، وهو هدية ثمينة لغير المسلمين والمثقفين المسلمين ، والباحثين عن الحق ، للتعريف بالإسلام ، ولعرض سيرة النبي ﷺ بإيجاز وأسلوب مقنع مؤثر . وقد صدرت عدة ترجمات إنجليزية له ، وأحدثها الطبعة التي أصدرها المجمع الإسلامي العلمي بلكناؤ الهند باسم : (Muhammad the Ideal Prophet) .

يعرف العلامة سيد سليمان الندوي عادة في الأوساط العلمية كمؤرخ وأديب، ولكني أعتقد أن موضوع اختصاصه الذي يتجلى فيه ذوقه الطبعي هو القرآن الكريم وعلم الكلام ، ويدل على هذا الاتجاه المجلدان الرابع والخامس من "سيرة النبي" ﷺ ، اللذان يعالجان منصب النبوة والعقائد والعبادات والأخلاق بزاوية جديدة ودراسة مقارنة .

إن سيد سليمان الندوي يستحق بدون مراء أن يعدّ أكبر مؤرخ وباحث لعصره ، وإن كتبه "خيام" و "عرب وهند کے تعلقات" (الصلات بين الهند والعرب) ، و "أرض القرآن" و "عربون کي جهاز راني" (الملاحة عند العرب)، و "الإمام مالك -رحمه الله" ، و "سيرة عائشة -رضي الله عنها" خير نماذج للكتابة في التاريخ والبحث العلمي ، وكتابه "أرض القرآن" لا يزال كتابًا فريدًا لم ينسج على منواله في موضوعه ، وهو ثروة غنية في المواد العلمية .

وبالنظر إلى هذه المؤلفات القيمة يمكن أن يصدر الحكم بأن شخصًا واحدًا في بعض الظروف ينجز من أعمال علمية هائلة لا تستطيع الأكاديميات الكبيرة إنجازها ، وقد كتب شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال ، الذي كان بدوره عالمًا كبيرًا للفلسفة والعلوم الشرقية ، في رسالة له : (إن سيد سليمان الندوي يفجر من الصخرة ينبوعًا من العلم ، ويمتلك ناصية العلوم الإسلامية) .

(C) www.nidaulhind.com

كان من مزايا شخصية سيد سليمان الندوي : الجامعية والشمول في المعرفة والبحث . فقد كان خبيرًا بالعلوم القديمة والعصرية ، وكان مؤرخًا وأديبًا وناقدًا ومحققًا . وبجانب ذلك كان فقهيًا ومحدثًا في آن واحد ، وبالإضافة إلى هذا الاشتغال والشغف بالبحث العلمي كان من كبار القادة لحركة تحرير البلاد والانتفاضة السياسية للمسلمين . فكان يرأس اجتماعات وحفلات أدبية ولغوية. ويرأس مجالس فقهية ودينية تضم العلماء . وكان أحد أعضاء وفد حركة الخلافة الذي توجه إلى إنجلترا برئاسة رئيس الأحرار مولانا محمد علي في عام (١٩٢٠م) . لشرح مشاعر المسلمين إزاء قضية الخلافة على المسئولين البريطانيين والمثقفين وقادة الفكر في بريطانيا ، وترأس أيضًا وفد الخلافة الذي اشترك في المؤتمر الإسلامي الأول . الذي دعا إليه الملك عبد العزيز بن سعود في عام (١٩٢٦م) . وكان أحد الأعضاء الثلاثة للوفد الذي توجه إلى أفغانستان بناءًا على دعوة نادر خان ملك أفغانستان لإعداد خطة جديدة للتعليم في أفغانستان ، وكان العضوان الآخران في الوفد الدكتور محمد إقبال ، والسير رأس مسعود نائب رئيس الجامعة الإسلامية بعلي كره .

وقد انتقل في آخر حياته -قبل انتقاله نهائيًا إلى باكستان- إلى إمارة بوفال، وشغل مناصب رئيس القضاة وأمير الجامعة الأحمدية ، والمستشار للشئون الدينية . ومكث هناك أربع سنوات ، ثم اشترك في إعداد الدستور لجمهورية باكستان الإسلامية . وقام بإرشاد هذا البلد الفتي دينيًا .

ومن مآثره الأخرى أنه أحرز قدم السبق ونال الاعتراف به في ميدان لغة البلاد وأدبها . وصدرت بقله السيّال وفكره الغزير مقالات وخطب وبحوث علمية أشاد بها النقاد وأساتذة اللغة الأردية والأدب الأردي ، لغزارتها العلمية وسعة المطالعة . وعمق النظر . ويعتبر كتاب "نقوش سليماني" خير

(C) www.nidaulhind.com

نموذج لها ، وبذلك رد علميًا التهمة الشائعة بأن علماء الدين لا يستطيعون أن يسايروا ركب اللغة والأدب السيار ، وأنهم لا يستطيعون التعبير عن أفكارهم إلا باللغة القديمة ، وبذلك فإنه أنقذ الدعوة الإسلامية والتعبير الديني من خطر التخلف والجمود ، وغض البصر عن العهد الجديد والطبقة المثقفة العصرية .

إن الذين يتابعون تاريخ العالم العلمي والفكري والديني . ويعرفون أغواره وأنجاده ، يعرفون أن فجوة هائلة وقعت أحيانًا في تاريخ الأمم والملل بين خبراء العلوم القديمة والطبقة العصرية المثقفة والعصر المتجدد . وأدّت هذه الفجوة إلى عزل الدين والأخلاق عن موضع التأثير والنفوذ . وعاش المجتمع في فجوة من سيطرتها ، فأصبح العلم والسلطة كالفيل الهائج . وأصبحت الحياة كالجمل المرسل حبله على غاربه ، وكانت هذه الفجوة مصدر صراع شديد نشأ في القرون الوسطى ، في أوربا بين العلم والدين . وقد وصف هذا الصراع الكاتب الشهير (Drapper) في كتابه المعروف "الصراع بين الدين والعلم" (Conflict Between-Religion & Science:- وقد مرت أوربا بتلك القرون المظلمة (Dark Ages) التي قام فيها محاكم التفتيش ، وصدرت أحكام قاسية على الباحثين . وقد وصف مؤلف أوربي وهو يذكر فظائع هذه المحاكم أن عدد قتلاها يزيد عن عدد قتلى الحرب العالمية الكبرى . ولكن لم يحدث مثل هذا الصراع بين رجال الدين ورجال العلم في الإسلام ، ولم تقع مثل هذه الفجوة في تاريخ الملة الإسلامية . ويرجع الفضل في ذلك إلى أمثال هؤلآء العلماء الذين كانوا يتصفون بالجامعية والبصيرة العلمية والذهن الوقّاد ، والذين شعروا بتغير الزمن وتابعوا المسائل المستحدثة ، وعرفوا ذهن الجيل الجديد ونفسيته ، وفهموا اللغة المتطورة للبلاد والأساليب البيانية وقاموا برعايتها ، فأنقذوا الجيل الجديد من تيارات

(C) www.nidaulhind.com

التشكيك والإلحاد والمروق . وتستحق أسماء العلامة شبلي النعماني ، وتلميذه الرشيد العلامة سيد سليمان الندوي . وبناة ندوة العلماء وأساتذتها الفضلاء ، من بين علماء هذا العصر ومؤلفيه بأن تكتب بماء الذهب في هذا الميدان ، إنها لمأثرة دينية علمية كبرى . ويطول الاستشهاد بمقتطفات من كتابات سيد سليمان الندوي التي تنم عن مدى اهتمامه وشعوره بهذا التغير ومدى رعايته لهذا الجانب في مؤلفاته . وخاصة في كتابه السيرة النبوية وشرح العقائد الإسلامية .

أعتقد أنه لم يكن في العلماء المعاصرين ، وعلى الأقل في خريجي المدارس الدينية في الهند من عاش معركة العقل والقلب . والقديم والجديد ، والشرق والغرب . والدين والأدب . أو الدين والفلسفة مثل ما عاشها أستاذنا العلامة الذي كان من خريجي درا العلوم ندوة العلماء . ومؤلف "سيرة النبي" ﷺ ، وسياسيًا خبيرًا . وأديبًا بصيرًا ، تجول في أوربا ، وكان قد سقى شجرة العلم بنبعه الفياض . واستظل بظلها الظليل سنين طوالاً . وتناول موضوع التاريخ ، وتحدث عن فلسفة مدّ العلم وجزره . وتطوره وانحطاطه ، ولكن قلبه السليم وروحه الوثّابة كانت تشهد -وإن كان تلاميذه والمعجبون بعلمه وكتاباته لا يقرون بأنه كان في حاجة إلى مزيد جديد- بأنه لم ينهل بعد من نميره الصافي الفياض . وكانت مؤلفاته وخاصة "خطبات مدراس" : "الرسالة المحمدية" ، و "سيرة النبي" . و "سيرة عائشة" قد أذكت في قلوب آلاف من الناس شعلة الإيمان . فذاقوا حلاوته . ولكن همته البعيدة وعزمه وطموحه كان يحثه على البحث عن تلك المنزلة التي عبر عنها الحديث الشريف بالإحسان ، والقرآن الكريم بالتزكية .

وكما أنه وجد مرشدًا وموجهًا . مثل العلامة شبلي النعماني ، في طريق

(C) www.nidaulhind.com

العلم والأدب والبحث والتحقيق ، فطواها بنجاح وتوفيق . كذلك كان يبحث عن مرب حكيم وموجه بصير ، يبصره بغوائل النفس ومواضع الضعف في طبقة العلماء والمنشغلين بالعلم والتأليف ، ويسهّل له الوصول إلى مرتبة الإحسان والتزكية (٢) ، وإن قصته ومشاعره الداخلية في ذلك كانت -إلى حد كبير- كالتي نشاهدها في حياة الإمام حجة الإسلام الغزالي . فإنه لما بلغ ذورة الفضل والكمال والشهرة العلمية ، بدا له ما كان يشتغل به من اجتهاد علمي وفكري كسراب ، وخرج من بغداد في البحث عن معين العلم الحقيقي واليقين والمعرفة. وعاد موفقاً قد نهل وعلّ .

وكان العلامة سيد سليمان الندوي يمتاز من بين أقرانه بهمة عالية و ولع شديد بتحقيق منجزات علمية ، وكان يقبل على إكمال كتاب يبدأ تأليفه كأنه أحب وآخر عمل يقوم به في حياته ، فكان يركز عليه جلّ عنايته . يبذل فيه كل جهوده ، ويطالع مئات ، بل وآلافاً من الصفحات لأجله . ويجمع المعلومات . ويحضّر المواد ، ثم يستخدمها وينتفع بها في إخراج هذا الكتاب أو البحث . وما كاد ينتهي من عمل حتى يبدأ بعمل آخر ، بدلاً من أن يأخذ قسطاً من الراحة ، ويروح نفسه من التعب والعناء ، الذي لاقاه في البحث والتحقيق . وكان يشتغل به بنفس النشاط والرغبة . وقد أثر ذلك في صحته . فتعرض لأمراض مضنية وضعف وإعياء شديد . وهو لا يفتر ولا يستريح . ويبقى مشغول الخاطر بالموضوع الذي يبحث فيه أو يستعد له ، شأن من استأسره العلم وملك عليه مشاعره وتفكيره وملأ منه كل فراغ .

وكان مما ميزه الله به ، سعة النظر واتزان الفكر ، وكان في ذلك نصيب للبيئة التي تلقى فيها تربيته العلمية والفكرية . وفضل لتوجيه الأساتذة

(C) www.nidaulhind.com

والمربين الذين استفاد منهم . فلم يكن فيه تزمت فكري ، أو عصبية مذهبية ، أو جمود علمي ، شأن كثير من العلماء في عصره وقبل عصره .

وكان بريئًا من ضحالة علمية . وتسرع في الحكم ، وانبهار بالحضارة الأوربية . كالطبقة المثقفة الجديدة . بل كان واسع النظر ، رحب الصدر ، محبًا للوسطية والاعتدال في كل شئ من آرائه العلمية إلى مذهبه الفقهي ، ولو لم يكن كذلك لواجه حرجًا وعنتًا في كثير من المناسبات ، وفي صحبة الزعيم الهندي الكبير مولانا محمد علي في وفد الخلافة إلى إنجلترا . وفي حضوره للمؤتمر الإسلامي في مكة المكرمة وسفره إلى أفغانستان ، وصلاته بالجامعة الإسلامية في عليكره . والجامعة الملية الإسلامية في دلهي ، والمجامع الأدبية واللغوية والعلمية في أنحاء الهند التي كان فيها موضع احترام وإجلال وتقدير واعتراف .

كان سيد سليمان الندوي ربع القامة ، مائلاً إلى القصر ، له وجه مشرق ، تلوح عليه أمارات الهدوء والسكينة . ويعلوه الوقار والرزانة ، له لحية كثة ستديرة ، وجبين واسع زاهر ، ممتلئ الوجنتين ، واسع العينين تشفّان عن ذكاء وحياء ، أزجّ الحاجبين ، رقيق الشفتين ، نقي اللون بين سمرة وبياض ، نظيف الملابس دائمًا . لا يراه الناس قط في وسخ وتبذل ، ملتزمًا للعمامة في الأسفار والمجامع ، مقلا من الكلام ، كثير الصمت ، دائم الفكرة ، امتزج العلم بلحمه ودمه ، فلا يعني إلا به ، ولا يتحدث إلا عنه ، مديم الاشتغال بالمطالعة والبحث ، دائم المذاكرة للعلماء في العلم والدين ، سلس القريحة ، سائل القلم في التأليف والتصنيف ، ليست الخطابة في المجامع العامة والخوض في السياسة من طبعه وذوقه ، فلا يتقدم إلى ذلك إلا متكلفاً أو مضطرًا ، راسخًا في العلوم العربية وآدابها ، عالي الكعب ، دقيق النظر في علوم القرآن وعلم

(C) www.nidaulhind.com

التوحيد والكلام ، واسع الاطلاع ، غزير المادة في التاريخ وعلم الاجتماع والمدنية، منشئًا صاحب أسلوب أدبي في اللغة الأردية ، كاتبًا مترسلاً في اللغة العربية ، شاعرًا مقلاً في اللغتين مع إحسان وإجادة ، حليمًا صابرًا ، يقهر النفس ، ويتسامح مع الأعداء والمعارضين ، ضعيف المقاومة في شئونه الشخصية، يتحمل ما يرهقه ويشق عليه .

وبقي مشغولاً بالذكر والعبادة ، والتربية والإفادة ، إلى أن وافاه الأجل في غرة ربيع الآخر سنة ثلاث وسبعين وثلاث مائة وألف هجرية (١٩٥٣م) في كراتشي ، وحضر جنازته كبار العلماء وأعيان البلاد ، وسفراء الحكومات الإسلامية والعربية ، ودفن بجوار الشيخ شبير أحمد العثماني) (٣) .

***

نداء الهند

الهوامش :

(١) نقله إلى العربية الأستاذ محمد ناظم الندوي .

(٢) تتلمذ العلامة لإكمال هذا الجانب من حياته المليئة بالأشغال العلمية والتأليفية على العالم الرباني والمصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي (المتوفى ١٣٦٢هـ) وحاز ثقته وشهادته بالإخلاص والنبوغ .

(٣) مقتبس من كتاب "نزهة الخواطر" المجلد الثامن للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، والقطعة المقتبسة هنا بقلم نجل المؤلف أبي الحسن الندوي .